

أقوال المفسرين

توجيهها ومسالك التوفيق بينها

د. حسين بن علي بن حسين الحربي (*)

ملخص البحث

الحمد لله، وبعد ؛ فهذا بحث يعالج موضوعاً مهماً في علم أصول التفسير، أردت منه الوصول إلى أصول يمكن من خلالها دراسة أقوال المفسرين المتعددة وتوجيهها ومسالك التوفيق بينها، عملت فيه على شرح هذه المسالك والتمثيل لها من تفسير آي القرآن، وقد استعرض البحث في مقدمته أهمية البحث ومنهج دراسته، ثم عرّف بمصطلحات البحث الإفرادية والمركب الإضافي "توجيه أقوال المفسرين ومسالك التوفيق بينها" ورصد البحث أهم شروط الجمع والتوفيق بين أقوال المفسرين، ومراتب النظر في أقوالهم .

ثم درس البحث ثمانية مسالك لتوجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها تأصيلاً وتمثيلاً لها من كلام المفسرين، فدرس توجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها بتخريج كل قول على قراءة، وذلك في تفاسير السلف التي اعتمدت على تعدد أوجه قراءة الآية القرآنية. ودرس توجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها بتخريج كل قول على وجه في الوقف، وذلك في حال تعدد مواضع الوقف بتعدد أوجه تفسير الآية، وبيان أثر تعدد مواضع الوقف على تعدد المعاني. ودرس البحث التوفيق بين أقوال المفسرين بتخريج كل قول على التفسير بالمثل،

(*) أستاذ القرآن وعلومه المساعد - قسم الثقافة الإسلامية - كلية التربية - جامعة جازان.

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

ورصد من خلال هذا المسلك العلل والأسباب التي دعت السلف إلى تفسير اللفظ العام ببعض أفراده. ودرس التوفيق بين أقوال المفسرين بجمعها في معنى أو وصف كلي. ودرس البحث التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل اللفظ على كافة دلالاته مطابقة وتضمناً والتزاماً، وبين هذا المسلك الفرق بين منهج أهل السنة والمؤولة في تعاطي تفسير اللفظ بلازمه. ودرس البحث التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل الآية عليها جميعاً لتلازمها. ودرس التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل المسمى على كافة أوصافه التي فسّر بها. ودرس البحث التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل اللفظ على كافة الأقوال لتقاربها.

ثم ختم البحث بخاتمة اشتملت على ما توصل إليه من نتائج، ثم دُيِّل البحث بقائمة المصادر والمراجع التي استمد منها مادته العلمية.

* *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ونبينا محمد وآل وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الدارس لأقوال المفسرين - وفق أصول التفسير التي اعتمدها أهل العلم - بمنهجية علمية يجد حتماً ضرورة مراعاة مواطن الاتفاق ومواضع الاختلاف، وتصنيف ذلك الاختلاف، والتعرف على توجيهه وأوجه وروده، ومسالك التوفيق والترجيح بين أقواله المختلفة، فالتفسير لا يخلو من أن يكون متفقاً عليه لفظاً ومعنى، وهذا هو إجماع المفسرين نصاً على تفسير الآية بمعنى واحد، مثل إجماعهم على تفسير المغضوب عليهم: باليهود، والضالين: بالنصارى في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] (١)، أو أن يكون مختلفاً فيه، وهو على وجهين (٢): أحدهما: أن تكون الأقوال المختلفة ليس بينها تضاد أو تناقض، بل كل منها حق في تفسير الآية، وتعدد الأقوال فيها من قبيل اختلاف التنوع، كاختلاف العبارات بأن يعبر كل مفسر عن المراد بعبارة مقارنة لعبارة صاحبه، أو أن يعبر كل مفسر عن ذات المسمى بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر، أو كاختلاف الصفات بأن يعبر كل مفسر عن المسمى بصفة من صفاته

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣١/١)، والنكت والعيون (٦١/١)، وبحر العلوم (٨٣/١)، وفتح القدير (٢٥/١)، وفتح البيان (٥٣/١)، والإجماع في التفسير ص ١٣٧.

(٢) انظر مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨-٥٥، ومجموع الفتاوى (٣٨١/١٣-٣٨٤)، و(١٦٠/٥-١٦٣) والتسهيل لعلوم التنزيل (٦٢/١-٦٣)، وأصول في التفسير ص ٣٠-٣١.

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

غير الصفة التي عبر بها الآخر، أو التمثيل ببعض ما يدخل تحت مدلول الاسم العام لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبهه على نظيره، أو أن يذكر أحدهم سبباً لنزول الآية ويذكر الآخر سبباً آخر لنزولها، أو يكون كل مفسر عبر عن اللفظ المشترك بأحد معنييه التي لا يمتنع حمله عليها في آن واحد، ونحوها من المعاني .

فمثل هذا الاختلاف يصح معه حمل الآية على جميع الأقوال، ويمكن الجمع والتوفيق بينها، كما أنه لا يجوز معه إلغاء شيء من المعاني التي احتملها اللفظ والسياق، ولا يمتنع في هذا الوجه أن تكون بعض الأقوال أولى من بعض لدلالة في سياق الآية أو من خارجه دالة على أولويتها . وهذا الوجه من أوجه الخلاف هو محل هذه الدراسة .

والوجه الآخر: أن تكون الأقوال في تفسير الآية مختلفة في ألفاظها ومعانيها، ولا يمكن الجمع والتوفيق بينها وحمل الآية عليها جميعاً في آن واحد وذلك لتضادها، فلا بد في مثل هذه الحالة من الترجيح، مثل الأقوال المتعددة في نسخ الآية وإحكامها، فلا يمكن معه إلا القول بأحدهما وترجيحه، ومثله المشترك اللفظي الذي يمتنع حمله على معنييه أو معانيه في آن واحد . ويمكن أن يدخل تحت هذا الوجه الأقوال الشاذة التي لا يقبلها اللفظ والسياق، كتفاسير الباطنية وما عدَّ غلطاً من أقوال المفسرين؛ إذ لا يمكن حمل الآية على مثل هذه الأقوال .

وقد تناول كثير ممن ألف في علم أصول الفقه جانب التأصيل لمسالك الجمع والتوفيق بين المختلف ضمن مباحث التعارض والترجيح بين الأدلة الشرعية، والنسخ والعام والخاص ونحوها، لكنها تفتقر إلى كثير من الأمثلة التفسيرية، ولم أر من أفرد الموضوع بالدراسة والتأصيل في جانب التفسير،

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

فكانت الحاجة ماسة إلى جمع شتات هذا الموضوع في منهج تأصيلي وتطبيقي فكانت هذه الدراسة إكمالاً لحققة الدراسات السابقة في تأصيل منهج الدرس لأقوال المفسرين المختلفة في كتب التفسير ما اتفق منها وما اختلف، ولا غنى للناظر في كلام المفسرين عن تصور صحيح لمسالك الجمع والتوفيق بين أقوال المفسرين وفهم مرادهم قبل الترجيح بينها.

وقد جعلت هذه الدراسة وفق المنهج الآتي:

١- جمعت مسالك توجيه الأقوال والتوفيق بينها وضوابط ذلك من كتب التفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه، واستخلصت منها ما يصلح لدراسة أقوال المفسرين، وحاولت التوفيق بينها فيما تناظر، والمواءمة بين النفس التفسيري والنفس الأصولي في عرض مسائل الموضوع .

٢- ضربت أمثلة تفسيرية على كل ما ذكرته من مسالك توجيه الأقوال والتوفيق بينها يحصل بها الإيضاح ويتضح بها المقصود .

٣- اجتهدت في إبراز الأثر التفسيري لإعمال مسالك توجيه الأقوال والتوفيق بينها من خلال عرض الأمثلة .

٤- أبرزت شيئاً من عناية المفسرين بهذا النوع من الدرس للأقوال المختلفة في التفسير .

٥- اعتمدت الأسس العلمية في توثيق النصوص والأقوال المنقولة من مصادرها الأصلية.

أسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب، ويرشدنا طريق الحق، وأن يفقهنا في الدين، ويعلمنا تأول كتابه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين،،،،.

تمهيد: ويشمل :

أولاً: تعريف مصطلحات البحث .

ثانياً: شروط الجمع والتوفيق بين أقوال المفسرين .

ثالثاً: مراتب النظر في أقوال المفسرين .

أولاً: تعريف مصطلحات البحث .

١- التوجيه .

التوجيه هو إيراد الكلام على وجه يندفع به كلام الخصم^(١).

٢- المسالك .

المسالك في اللغة جمع مسلك وهو الطريق، والسلوك يدل على نفوذ شيء في شيء، يقال سلكت الطريق أسلكه، وفي التنزيل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] أي: أدخله ينابيع في الأرض^(٢) .

٣- الجمع .

الجمع في اللغة مصدر جمع وهو ضم ما شأنه الافتراق والتتفرق^(٣).

٤- التوفيق .

التوفيق مصدر وفق، وتدور مادته على ملاءمة الشئئين، واتفق الشئان: تقاربا وتلاءما^(٤) .

(١) التعريفات ص ٩٩، وانظر التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢١٣، والكليات ص ٣٠١ .

(٢) انظر مادة "سلك" في معجم مقاييس اللغة (٩٧/٣)، ولسان العرب (٤٤٢/١٠)، والتوقيف على مهمات التعاريف ص ٤١٣ .

(٣) انظر مادة "جمع" في معجم مقاييس اللغة (٣٧٩/١)، ولسان العرب (٥٣/٨)، والتوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٥١ .

(٤) انظر مادة "وفق" في معجم مقاييس اللغة (١٢٨/٦)، ولسان العرب (٣٨٢/١٠) .

أقول المفسرين توجيهها ومساك التوفيق بينها

٥- تعريف المركب الإضافي (توجيه أقوال المفسرين ومساك التوفيق بينها).

من خلال الدلالة المعجمية لمصطلحات البحث يمكن القول في تعريف المركب الإضافي (توجيه أقوال المفسرين ومساك التوفيق بينها) : إنها: الطرق التي يتوصل بها للتأليف والتلاؤم بين أقوال المفسرين المختلفة وحمل الآية عليها جميعاً، وتخريجها إلى معان صحيحة يحتملها النص المفسر .

ثانياً: شروط الجمع والتوفيق بين أقوال المفسرين .

إن الجمع والتوفيق بين أقوال المفسرين يقوم على توظيف دلالات جميع الأقوال المذكورة في تفسير الآية في بيان النص القرآني المفسر، والدخول في دقيق دلالاته، وإيجاد روابط تربط بين تلك الدلالات للأقوال المتعددة، إذا تقرر هذا فلا بد لقبول الأوجه التي يجمع بها بين الأقوال من تحقق شروط من أهمها:

١- أن يكون القائلون بهذه الأقوال من المفسرين المعتمدين عند أهل العلم ؛ فليس قول كل أحد ممن كتب في تفسير القرآن يصلح أن يوفق بينه وبين أقوال السلف في التفسير؛ إذ لأقوال السلف دلالاتها العميقة في تفسير النص القرآني، بعكس أقوال كثير من المتأخرين.

٢- ثبوت الأقوال المراد الجمع بينها عن قائلها بوجه صحيح معتبر ؛ إذ عدم ثبوت القول عن قائله يلغي اعتباره قولاً في تفسير الآية .

٣- أن يكون من يقوم بالجمع بين الأقوال أهلاً لذلك ؛ فليس لكل أحد أن يقضي على أقوال أهل العلم بالتخرجات .

٤- أن يكون الوجه الذي جُمع به بين الأقوال مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية، وسياقها .

٥- أن يكون الوجه الذي جُمع به بين الأقوال التفسيرية مستوعباً لها.

د. حسين بن علي بن الحسين الحربي

٦- ألا تكون المسالك التي جُمع بها بين الأقوال متمحلة، أو بعيدة عن دلالات النص القرآني .

ثالثاً: مراتب النظر في أقوال المفسرين .

الواجب على الدارس لأقوال المفسرين أن يسلك المراتب الآتية في دراسته لأقوالهم:

المرتبة الأولى: الجمع والتوفيق بين أقوال السلف في التفسير متعين متى ما أمكن ذلك. فيجب الحمل عليها جميعاً إذا احتملها اللفظ ولم يمتنع إرادة الجميع، ولم تفض إلى مخالفة دلالات ظاهر القرآن، لما في ذلك من اعتبار كافة الأقوال في الآية، وعدم ترك شيء منها^(١)؛ إذ الجمع أولى من الترجيح باتفاق أهل العلم^(٢).

وقد قرر أبو بكر الجصاص (ت: ٣٧٠هـ) أن "اللفظ إذا كان محتملاً للأمرين فالواجب حمله عليهما فيكونا جميعاً مرادين"^(٣)، خاصة إذا كانت الأقوال غير مشتملة على تناقض، وكان اللفظ يحتملها جميعها وأمكن أن تكون مرادة منه، وجب حمله على جميعها ما أمكن، سواء أكان احتمالها لها مساوياً، أم كان في بعضها أرجح من بعض، وإلا فحمله على بعضها دون بعض إلغاء

(١) انظر تقرير هذا المعنى في جامع البيان (١/٢٢٥)، ومجموع الفتاوى (١١/١٥-١٢)، وبدائع الفوائد (٣/٣)، والتحرير والتنوير (١/٩٦-١٠٠)، وقواعد التفسير (٢/٨٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/١٧٥)، والبرهان (٢/١٥٩-١٦٠)، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٢/٥٠)، و(٢/٤٠٧)، و(٣/١٢٤)، و(٣/٤٨٤).

(٣) أحكام القرآن (١/٩٥)، وانظر أحكام القرآن له (١/٢٨٣).

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

للفظ بالنسبة إلى بعض احتمالاته من غير موجب، وهو غير جائز، ولأنه لو جاز أن يكون مراداً، فأعمال اللفظ بالنسبة إليه أحوط من إهماله^(١).

قال الشاطبي(ت: ٧٩٠هـ): من الخلاف ما لا يعتد به في الخلاف، وهو ضربان... الثاني: ما كان ظاهره الخلاف وليس في الحقيقة كذلك، وأكثر ما يقع ذلك في تفسير الكتاب والسنة، فتجد المفسرين ينقلون عن السلف في معاني ألفاظ الكتاب أقوالاً مختلفة في الظاهر، فإذا اعتبرتها وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد، والأقوال إذا أمكن اجتماعها والقول بجميعها من غير إخلال بمقصد القائل، فلا يصح نقل الخلاف فيها عنه. اهـ^(٢).

وقال الشنقيطي(ت: ١٣٩٣هـ): وتقرر عند العلماء أن الآية إن كانت تحتل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع. كما حققه بأدلته الشيخ تقي الدين أبو العباس بن نيمية رحمه الله في رسالته في علوم القرآن اهـ^(٣).

وقرر الطاهر ابن عاشور(ت: ١٣٩٣هـ) في مقدمة تفسيره هذا الأصل في دراسة الأقوال وأنه يرى أن المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ بدون خروج عن مهيع الكلام العربي البليغ، معان في تفسير الآية^(٤). ومسائل هذا البحث أمثلة لهذه المرتبة.

المرتبة الثانية: تقديم الأوكى، وتكون هذه المرتبة مختصة بالنظر في الأقوال التي يحتملها اللفظ، ولا تعارض بينها، ولا تعارض نصاً من القرآن أو السنة، غير أن بعضها أولي من بعض؛ لكون القرآن ودلالة ألفاظه يشهد لقول،

(١) انظر الإكسير في علم التفسير ص ١٣.

(٢) الموافقات (٤/٢١٤-٢١٥)

(٣) أضواء البيان (٣/١٢٤)

(٤) انظر التحرير والتوير (١/٩٧، ١٠٠).

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

أو السنة تشهد لأحدها، أو لغة العرب، أو قرائن في السياق، أو أسباب آخر تقضي بتقديم أحد الأقوال، ولا يلزم من تقديم قول أن يطرح ما سواه، بل هذا من باب تقديم الأوّلى، وإن كانت بقية الأقوال لها وجه في الآية، وهذه المرتبة تكون في بعض صور اختلاف التنوع المأثور عن السلف.^(١) وأمثلة هذا النوع كثيرة في كلام المفسرين، لا يكاد يخلو منها تفسير آية .

المرتبة الثالثة: الترجيح، ويصار إليه عند عدم إمكان الجمع بين الأقوال لتعارضها تعارضاً لا يمكن معه إرادة الجميع، ويكون ذلك في حال كون الخلاف من قبيل خلاف التضاد، ويكون الترجيح باعتماد وجوه الترجيح المعتبرة في النص نفسه أو بقريضة ودليل خارج عنه، وذلك اعتماداً للصحيح من الأقوال دون الخطأ أو الشاذ منها، فإن كانت الأقوال المتعارضة صادرة من مفسر واحد فللمتأخر منها اعتبار في حال تماثلها في الصحة، وإلا قدم الصحيح.^(٢)

قال الشنقيطي(ت:١٣٩٣هـ): ومعلوم أن الجمع واجب إذا أمكن، وإن لم يمكن وجب الترجيح. اهـ.^(٣)

ومن أمثلة هذه المرتبة خلاف المفسرين في تفسير "القرء" في قوله تعالى ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فقال بعضهم: هو الطهر، وقال آخرون: هو الحيض.^(٤)

(١) انظر قواعد الترجيح (٤٤/١)

(٢) انظر البرهان (١٦٠/٢) .

(٣) أضواء البيان (٣ / ١٧٥) .

(٤) انظر أقوال السلف في تفسير القرء في جامع البيان(٤/٨٧-١٠٤) . وانظر النكت والعيون(٣٩/١) .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

فمثل هذا الخلاف لا بد فيه من إعمال وجوه الترجيح والعمل بأحد القولين، إذ لا يمكن أن يكون المراد الاعتداد بهما معاً في آن واحد من عامل واحد، وهو من المشترك الذي لا يمكن حمله على معنييه أو معانيه، فلا بد من ترجيح أحد المعاني في تفسير اللفظ، وهذا محل اتفاق عند أهل الأصول^(١).

إذا تقرر هذا فإن لتوجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها مسالك كثيرة من أهمها ما يلي:

المسلك الأول: توجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها بتخريج كل قول

على قراءة .

للقرآيات أثر كبير في إثراء معاني الآيات القرآنية، فكثيراً ما يدلي اختلاف القراءات بمعان متعددة في الآية، وقد يقرأ بعض الدارسين هذه المعاني المتعددة على أنها اختلاف في المعنى، وحقيقة الأمر أنها ليست اختلافاً في معنى الآية، بل من تكثير معانيها التي دلت عليها القراءات المختلفة للآية، ومن المقرر عند العلماء "أن القراءتين كالأيتين"^(٢) لذا كان "من المهم معرفة التفاسير الواردة عن الصحابة بحسب قراءة مخصوصة، وذلك أنه قد يرد عنهم تفسيران في الآية الواحدة مختلفان فيظن اختلافاً وليس باختلاف، وإنما كل تفسير على قراءة"^(٣) وكان قتادة (ت: ١١٧هـ) من أوائل من قام بتحليل الأقوال المختلفة في

(١) انظر الأحكام للأمدى (٢/٢٦١)، وشرح تنقيح الأصول ص ١١٤-١١٥، والتمهيد

للأسنوي ص ١٧٨، وشرح الكوكب المنير (١/١٤٠)، وإرشاد الفحول ص ٤٨، وقواعد

الترجيح (١/٣٨) .

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربي (١/٢٣٣)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٣٩١)،

(٤٠٠)، والبرهان للزركشي (١/٣٢٧)، وأضواء البيان (٢/٨) .

(٣) الإتيان (٦/٢٣٠٦)، وانظر التحرير والتنوير (١/٩٦) .

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

تفسير الآيات وتوجيهها والتوفيق بينها بتوجيه كل قول على قراءة مخصوصة، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٥] اختلف أهل التفسير في تفسيرها^(١): فقال بعضهم: معنى (سُكَّرَتْ): سُدَّت. وبه قال مجاهد(ت: ١٠٤هـ)، والضحاك(ت: ١٠٥هـ)، وغيرهما .

وقال آخرون: معنى سكرت: سحرت، وبه قال ابن عباس(ت: ٦٨هـ)، وقتادة(ت: ١١٧هـ).

وهذان القولان في تفسير الآية مبنيان على اختلاف القراءة في لفظ ﴿سُكَّرَتْ﴾ فقرئت بتشديد الكاف وتخفيفها، فبتخفيف الكاف (سُكَّرَتْ) قرأ ابن كثير(ت: ١٢٠هـ) من السبعة، وقرأ بقية السبعة بالتشديد.^(٢) قال قتادة(ت: ١١٧هـ) موجهاً القولين: من قرأ ﴿سُكَّرَتْ﴾ مثقلة، يعني: سُدَّت، ومن قرأ ﴿سُكَّرَتْ﴾ مخففة، فإنه يعني: سحرت. اهـ.^(٣) قال السيوطي(ت: ٩١١هـ) ممتدحاً هذا الجمع من قتادة(ت: ١١٧هـ): وهذا الجمع من قتادة نفيس بديع. اهـ.^(٤) وحقاً إنه لجمع نفيس يؤسس لمنهج دراسة أقوال السلف المختلفة في التفسير وأوجه تخريجها فيما احتملته القراءات القرآنية .

(١) انظر أقوالهم في جامع البيان(٢٦/١٤-٢٩) .

(٢) السبعة ص ٦٧، والتيسير في القراءات السبع ص ١٣٦، وانظر القراءات وعلل النحويين فيها لأبي منصور الأزهري (٢٩٥/١)، والحجة لأبي علي الفارسي (٤٣/٥)، والكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها (٣٠/٢) .

(٣) رواه عنه ابن جرير في جامع البيان (٢٨/١٤)، وبنحو هذا الجمع قال البيضاوي في تفسيره (٥٢٧/١)، وأبو السعود في تفسيره (٧٠/٥) .

(٤) الإقتان(٢٣٠٧/٦) .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤] فقال بعضهم المعنى: أنه غير بخيل عليهم بتعليمهم ما علمه الله، وأنزل إليه من كتابه. ورواه ابن جرير (ت: ٣١٠هـ) عن مجاهد (ت: ١٠٤هـ) وقتادة (ت: ١١٧هـ) (١).

وقال آخرون المعنى: أنه غير متهم فيما يخبرهم عن الله من الأنبياء. ورواه ابن جرير (٣١٠هـ) عن ابن عباس (ت: ٦٨هـ) وكان يقرأ: (بِظَنِينِ) وبها قرأ سعيد بن جبير (ت: ٩٥هـ)، والضحاك (ت: ١٠٥هـ)، وغيرهم (٢).

ووجه هذا الخلاف في تفسير هذه الآية مبني على تعدد أوجه القراءة للفظ «بِضَنِينٍ» فقرئت بالضاد وبالطاء المشالة، فقرأ من السبعة ابن كثير (ت: ١٢٠هـ)، وأبو عمرو (ت: ١٥٤هـ)، والكسائي (ت: ١٨٩هـ): (بِظَنِينِ) بالطاء المشالة، وقرأ بقية القراء «بِضَنِينٍ» بالضاد (٣).

ويكون المعنى على قراءة (بِظَنِينِ) الضاء: أنه غير متهم فيما يخبرهم عن الله من الأنبياء، فهو فعيل بمعنى مفعول مشتق من الظن بمعنى التهمة، أي مظنون.

ويكون المعنى على قراءة «بِضَنِينٍ» بالضاد: أنه غير بخيل عليهم بتعليمهم ما علمه الله، وأنزل إليه من كتابه، مشتق من الضن مصدر ضن، إذا بخل. (٤)

(١) انظر جامع البيان (١٦٧/٢٤).

(٢) انظر جامع البيان (١٦٩-١٧٠).

(٣) انظر السبعة ص ٦٧٣، والتيسير في القراءات السبع ص ٢٢٠.

(٤) انظر القراءات وعلل النحويين فيها (٧٥٠/٢-٧٥١)، والحجة للقراء السبعة (٣٨٠/٦-٣٨١)، والكشف عن وجوه القراءات (٣٦٤/٢)، والتحرير والتنوير

(١٦٣-١٦٢/٣٠).

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

وعلى هذا يكون كل مفسر فسر الآية على وجه في القراءة ، والقراءتان سبعيتان ، وكلا الوجهين صحيح في تفسير الآية فهو ﷺ ليس بخيلا بالوحي وليس بمتهم في بلاغه والآية تحتمل المعنيين .

قال زرّ بن حبيش (ت: ٨٣هـ): «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ» [التكوير: ٢٤] قال: في قراءتنا: بمتهم، ومن قرأها: «بِضَنِينٍ» يقول: ببخيل^(١).

وبهذا الجمع فسرهما ابن زيد (ت: ١٨٢هـ)، قال ابن زيد في تفسير الآية : الغيب: القرآن، لم يضمن به على أحد من الناس أذاه وبلغه، بعث الله به الروح الأمين جبريل إلى رسول الله ﷺ فأدى جبريل ما استودعه الله إلى محمد، وأدى محمد ما استودعه الله وجبريل إلى العباد، ليس أحد منهم ضنّ، ولا كتم، ولا تخرّص^(٢). قال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): وإذ تواترت قراءة «بِضَنِينٍ» بالضاد الساقطة، و(بظنين) بالطاء المشالة، علمنا أن الله أنزله بالوجهين وأنه أراد كلا المعنيين. اهـ^(٣)، ونظائر ذلك كثيرة^(٤).

المسلك الثاني: توجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها بتخريج كل قول على وجه في الوقف .

هذا المسلك متعلق بعلم الوقف والابتداء لأن الوقف مرتبط بالمعنى وفرع عنه، وبه تتبيّن معاني الآيات، وتختلف مواضع الوقف باختلاف المعنى،

(١) رواه عنه الطبري في جامع البيان (١٦٨ / ٢٤) .

(٢) رواه عنه الطبري في جامع البيان (١٦٩ / ٢٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦٢ / ٣٠) .

(٤) انظر تفسير قوله تعالى: «وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ» [يوسف: ٤٥]، وتفسير قوله تعالى: «سَرَّابِيلُهُمْ

مِنْ قَطْرَانٍ» [إبراهيم: ٥٠]، وتفسير قوله تعالى: «أَوْ لَأَمْسُنَّ النِّسَاءَ» [النساء: ٤٣]

وغيرها، وانظر تأويل مشكل القرآن ص ٤٠-٤١.

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

وقد "يتعدد الوقف فيحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدد المعنى مع اتحاد الكلمات"^(١).

قال الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): معرفة الوقف والابتداء فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن، ويترتب على ذلك فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة، وبه تتبين معاني الآيات. اهـ^(٢)، فعلاقة الوقف بالمعنى علاقة ظاهرة ومتلازمة، فحاجة الوقف إلى معرفة المعنى المراد ماسة إذ الوقف أثر المعنى، وتختلف المعاني باختلاف مواضع الوقف.

قال الطاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): والوقف عند انتهاء جملة من جمل القرآن قد يكون أصلاً لمعنى الكلام فقد يختلف المعنى باختلاف الوقف. اهـ^(٣).

ومن الأمثلة على هذا المسلك في توجيه الأقوال والتوفيق بينها بسبب تعدد مواضع الوقف ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] اختلف المفسرون في تفسير الآية، وهل الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، أو أنهم لا يعلمونه، وهو من علم الله وحده؟ على قولين:

أحدهما: أن المتشابه من القرآن لا يعلم تأويله إلا الله منفرداً بعلمه، مختصاً به دون سائر خلقه. وأما الراسخون في العلم، فابتنؤ الخبر عنهم بأنهم يقولون: آمنا بالمتشابه والمحكم، وأن جميع ذلك من عند الله. وبهذا القول قال جماعة من السلف: فبه قالت عائشة (ت: ٥٨هـ)، وابن عباس (ت: ٦٨هـ)،

(١) انظر التحرير والتنوير (٨٣/١).

(٢) البرهان (٣٤٢/١).

(٣) التحرير والتنوير (٨٢/١).

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

وعروة(ت:٩٣هـ)، وعمر بن عبدالعزيز(ت:١٠١هـ)، ومالك(ت:١٧٩هـ)، وغيرهم^(١) واختاره ابن جرير(ت:٣١٠هـ).^(٢) فعلى هذا القول يكون الوقف في الآية على لفظ الجلالة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾^(٣).

والقول الآخر: أن المعنى: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، أي إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه وهم مع علمهم ﴿يَقُولُونَ أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. وبهذا القول قال جماعة من السلف: فبه قال ابن عباس(ت:٦٨هـ)، ومجاهد(ت:١٠٤هـ)، والزبيح بن أنس(ت:١٣٩هـ)^(٤)، وكثير من المفسرين وأهل الأصول وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد^(٥).

وعلى هذا القول يكون الوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٦) وبهذا يعلم أن الوقف فرع المعنى، وعليه يمكن القول إن الخلاف في معنى الآية انبني عليه الخلاف في تحديد موضع الوقف، ومن أخذ من القراء الوقف بالرواية على أحد الموضوعين فيفسر المعنى على القول الذي دل عليه الوقف، وكلا القولين صحيح لا ينفي أحدهما الآخر ولا يدافعه، بل كل منهما مراد حقيقة من الآية، والآية دالة عليه بتعدد مواضع الوقف فيها، فالعلم بتأويل المتشابه المنفي في القول الأول، هو العلم بحقيقة ما يثول إليه الأمر وكيفيته، وهذا لا يعلم حقيقته إلا الله، فالتأويل يرد في كتاب الله تعالى ويراد به حقيقة الشيء وما يثول أمره إليه كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي

(١) انظر الروايات عنهم في جامع البيان (٢١٨/٥-٢١٩).

(٢) جامع البيان(٢٢١/٥).

(٣) المكتفى ص ١٩٥.

(٤) انظر الروايات عنهم في جامع البيان (٢٢٠/٥).

(٥) تفسير ابن كثير(١٤/٣).

(٦) انظر المكتفى ص ١٩٦.

أقول المفسرين توجيهاً ومسالك التوفيق بينها

تَأْوِيلُهُ ﴿ [الأعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على لفظ الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الحقيقة إلا الله عز وجل^(١)، والعلم بتأويل المتشابه المثبت للراسخين في القول الثاني هو العلم بالمعنى الذي دل عليه المتشابه، وهذا الوجه على جعل معنى التأويل بمعنى التفسير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: بتفسيره؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون ويفهمون ما خاطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه^(٢).

المسلك الثالث: التوفيق بين أقوال المفسرين بتخريج كل قول على التفسير بالمثال .

إن تفسير ألفاظ القرآن الكريم العامة ببعض أفرادها من طرائق السلف في تفسير القرآن، فهم قد يفسرون اللفظ العام ببعض أفراده من قبيل التفسير بالمثال لما يدخل تحت مدلول اللفظ العام، ولا يقصدون بذلك التخصيص ولا حصر مدلول الآية على ما فسروا به دون بقية أفراد اللفظ العام^(٣)، وهذا كثير في تفسير السلف للقرآن، وعند دراسة هذه الأقوال المتعددة في هذه الطريقة في التفسير يجد الدارس أن المعنى الكلي العام للفظ يجمع كافة الأقوال التي فسرت اللفظ ببعض أفرادها، وهو المراد من دلالة اللفظ العام فتدخل كافة الأمثلة للأصناف

(١) انظر تفسير ابن كثير (١٥/٣-١٦).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١٦/٣). وانظر على سبيل المثال من نظائر ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَكَايُنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ٤٦].

(٣) انظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٤٣، وتفسير المنار (٩٨/١)، والتحرير والتوير (٩٩/٥).

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

تحت مدلوله (١). وقد أخذ السلف هذه الطريقة في تفسير القرآن من النبي ﷺ فقد فسر النبي ﷺ بالمثال لما يدخل تحت عموم اللفظ فعن عقبة بن عامر ربه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ألا إن القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي (٢)، ففسر النبي ﷺ القوّة ببعض أفرادها على سبيل المثال لا من قبيل التخصيص؛ إذ ليس في الحديث ما يدل على إرادة تخصيص القوة بالرمي أو حصرها فيه دون غيره من أنواع القوة وأسبابها، ولا شك أن الرمي أحد أفراد القوّة وأهمها وأشهرها، فلم يبق إلا أنه ﷺ ذكر الرمي تفسيراً للقوّة من باب التفسير بالمثال (٣).

قال الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ): من الخلاف ما لا يعتد به في الخلاف ... وأكثر ما يقع ذلك في تفسير الكتاب والسنة...وله أسباب: أحدها: أن يذكر في التفسير عن النبي ﷺ في ذلك شيء أو عن أحد من أصحابه أو غيرهم، ويكون ذلك المنقول بعض ما يشمله اللفظ، ثم يذكر غير ذلك القائل أشياء أخر مما يشمله اللفظ أيضاً، فينصهما المفسرون على نصهما، فيظن أنه خلاف، كما نقلوا في المن أنه خبز رفاق، وقيل: زنجبيل، وقيل: الترنجيبين وقيل: شراب مزجوه بالماء، فهذا كله يشمله اللفظ؛ لأن الله منّ به عليهم، ولذلك جاء في الحديث:

(١) انظر بحث نفيس حول مواضع الوهم من الكلمة لعبدالحميد الفراهي في مفردات القرآن

ص ١٠٠-١٠٧ "المقدمة الثانية في الأصول اللسانية"

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، حديث (١٦٧).

(٣) وينظر جامع البيان (١١/ ٢٤٩).

أقول انفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

"الكمة من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل"^(١)، فيكون المن جملة نعم، ذكر الناس منها آحاداً. اهـ^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) في بيان أصناف خلاف التنوع المنقول عن السلف: الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه، على سبيل التمثيل وتبنيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. اهـ^(٣).

وقال الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): وكثيراً ما يذكر المفسرون شيئاً في الآية على جهة التمثيل لما دخل في الآية، فيظن بعض الناس أنه قصر الآية على ذلك. اهـ^(٤).

وقد بين جماعة من أهل العلم العلل والأسباب التي دعت السلف إلى تفسير اللفظ العام ببعض أفراده من قبيل التفسير بالمثال في جملة من العلل والأسباب أهمها^(٥):

- ١- أن التعريف بالمثال يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق .
- ٢- أن يكون المثال المختار في بيان معنى اللفظ العام مما تدعو حاجة المستمع الحاضرة إلى معرفته .

(١) متفق عليه، البخاري، كتاب الطب، باب المنّ شفاء للعين، (١٧٢/١٠) الصحيح مع الفتح، ومسلم، كتاب الأشربة، حديث (١٥٧-١٦٢) .

(٢) الموافقات (٤/٢١٤ ، ٢١٥) .

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٣ .

(٤) البرهان (٢/١٦٠) .

(٥) انظر مجموع الفتاوى (١٦/١٤٧)، والاعتصام (١/١٠٣)، والبرهان (٢/١٥٩-١٦٠)،

والتحريير والتتوير (٥/١٠٠)، والتفسير اللغوي للقرآن الكريم ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ .

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

- ٣- أن يكون المثال المختار في بيان معنى اللفظ العام أليق بحال السائل.
- ٤- أن يكون المثال المختار في بيان معنى اللفظ العام تنبيهاً على أظهر أفراد العام وأشهرها .
- ٥- أن يكون المثال المختار في بيان معنى اللفظ العام تنبيهاً على الفرد الأخرى من أفراد العموم .
- ٦- أن يكون المثال المختار في بيان معنى اللفظ العام تنبيهاً على غيره من أفراد العموم .
- ٧- أن يكون المثال المختار في بيان معنى اللفظ العام هو الذي يعرفه المستمع .
- ونحو ذلك من العلل والأسباب التي دعت إلى شيوع هذه الطريقة في تفاسير السلف ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ): كثير من تفسير السلف يذكرون من النوع مثلاً لينبهوا به على غيره، أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذي يعرفه، كما يذكرون مثل ذلك في مواضع كثيرة. اهـ (١).
- وقال الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظنّ من لا فهم عنده أن في ذلك اختلافاً فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل. اهـ (٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٦ / ١٤٧) .

(٢) البرهان (١٥٩/٢-١٦٠) .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

ومن الأمثلة على هذا المسلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] تعددت عبارات المفسرين في بيان معنى "الحسنة" التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية:

فعن قتادة (ت: ١١٧هـ): أنها العافية في الدنيا، والعافية في الآخرة.

وعن الحسن (ت: ١١٠هـ): الحسنة في الدنيا العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة.

وعن السدي (١٢٨هـ): حسنة الدنيا المال، وحسنة الآخرة الجنة.

وعن محمد بن كعب (ت: ١٠٨هـ): المرأة الصالحة من الحسنات.

وعن ابن عمر (ت: ٧٤هـ): في حسنة الدنيا: الثناء^(١).

وهذه الأقوال فسرت لفظ "الحسنة" ببعض ما يدخل تحت مدلولها من قبيل التفسير بالمثال؛ إذ تجمع الحسنة من الله عز وجل في الدنيا العافية في الجسم والمعاش والرزق، والعلم والعبادة، أما في الآخرة فأعلاها وأغلاها الجنة، وما يتبعها من أمور الآخرة الصالحة.

قال الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما

(١) انظر مجموع هذه الأقوال والروايات عنهم في جامع البيان (٤/٢٠٤-٢٠٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢/٣٥٨-٣٥٩)، وانظر الدر المنثور (١/٥٦٠-٥٦١).

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة. اهـ^(١).

وقال رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ) بعد أن ذكر الأقوال: ورؤي بعض هذه الأقوال عن بعض السلف، ولعل كل ذي قول يُطلقها على المهمّ عنده. اهـ^(٢).

واختار ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) حمل الآية على العموم دون أن يخصص معنى من معاني "الحسنة".^(٣) وهذا منهج مطرد للإمام ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) في هذا النوع من التفسير، فهو يذكر أقوال السلف في تفسير اللفظ العام ببعض أفرادها من قبيل التفسير بالمثال، ويردّفه باختيار حمل الآية على عموم لفظها، فتدخل الأقوال المقولة على سبيل التمثيل جميعاً في دلالة اللفظ بالعموم.

ونظائر هذا المثال في كلام السلف كثير جداً^(٤).

ومما يدخل تحت هذا المسلك ويلحق به تعدد أقوال السلف في سبب نزول الآية سواء أكانت الأسباب صريحة في السببية أم لم تكن صريحة في السببية، فتعدها لا يعدو أن تكون مثلاً ضربت لما يدخل تحت مدلول الآية؛

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٢٣٧).

(٣) جامع البيان (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) انظر على سبيل المثال تفسير قوله تعالى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] وتفسير قوله تعالى: ﴿ وَاجْتَبُوا الطَّاعُونَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وتفسير قوله تعالى: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [النحل: ٤١]، وتفسير قوله تعالى: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ [الكهف: ٤٦]، وتفسير قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها
إذ تشمل الآية صورة سبب النزول وما ماثلها فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص
السبب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ): وقد يجيء كثيراً من هذا
الباب - [أي: من الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض
أنواعه] - قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً؛
كأسباب النزول المذكورة في التفسير .

كقولهم: إن آية الظهر نزلت في امرأة ثابت بن قيس بن شماس، وإن
آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وإن آية الكلاله نزلت
في جابر بن عبد الله (ت: ٧٨هـ)، وإن قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾
[المائدة: ٤٩] نزلت في بني قريظة والنضير، وإن قوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبْرَةً﴾ [الأنفال: ١٦] نزلت في بدر.... ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في
قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، أو في
قوم من المؤمنين .

فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون
غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق... والآية التي لها سبب
معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته،
وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان
بمنزلته... وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول
ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه
الآية كذا ...

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

وإذا عرف هذا؛ فقول أحدهم: نزلت في كذا، لا ينافي قول الآخر: نزلت في كذا، إذا كان اللفظ يتناولهما، كما ذكرناه في التفسير بالمثال. اهـ^(١).

المسلك الرابع: التوفيق بين أقوال المفسرين بجمعها في معنى أو وصف كلي. المعنى الكلي هو: المعنى الذي يجمع كافة الأقوال المقولة في الآية، وفيه تشترك دلالاتها .

ويقصد بهذا المسلك إيجاد معنى كلي تشترك الأقوال في الدلالة عليه وتقريره، سواء أكان المعنى المشترك مضمناً في أحد الأقوال المقولة في الآية، أم كانت الأقوال تشترك في تقرير جزئيات المعنى الكلي. ومن الأمثلة على هذا المسلك تعدد أقوال المفسرين^(٢) في بيان معنى "الخنس" في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [التكوير: ١٥] ففسرها علي (ت: ٤٠هـ) والحسن (ت: ١١٠هـ) وقتادة (ت: ١١٧هـ) بالنجوم، تبدو بالليل، وتخنس بالنهار، وفسرها ابن مسعود (ت: ٣٢هـ) بيقر الوحش، وفسرها ابن عباس (ت: ٦٨هـ) ومجاهد (ت: ١٠٤هـ) وسعيد بن جبير (ت: ٩٥هـ) بالطباء .

والمعنى الكلي الذي يجمعها هو أن كلاً من النجوم وبقر الوحش والضياء تخنس في بعض الأوقات والأحوال فالنجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وبقر الوحش والضياء تخنس إذا رأت إنساناً وتظهر إذا أمنت، فكلّ خنس.

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٤ - ٤٨ .

(٢) انظر أقوالهم في جامع البيان (١٥٢/٢٤-١٥٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٤٠٤/١٠)،

والسنة للمروزي ص ٨، وتفسير ابن كثير (٢٦٧/١٤-٢٦٩) وغيرها .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

وقد ذكر ابن جرير (ت: ٣١٠هـ) هذا المعنى الكلي في تفسيره لهذه الآية بقوله: إن الله تعالى ذكره أقسم بأشياء تخنس أحيانا: أي تغيب، وتجري أحيانا وتكنس أخرى، وكنوسها: أن تأوي في مكانها، والمكانس عند العرب، هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء... وغير منكر أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء، فالصواب أن يعم بذلك كل ما كانت صفته الخنوس أحيانا، والجري أخرى اهـ^(١).

ومن أمثلة ذلك - أيضاً - تعدد أقوال المفسرين^(٢) في بيان المراد بأولي الإربة في قوله تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِربَةِ﴾ [النور: ٣١]
ف قيل: هو الأحمق الذي لا حاجة به إلى النساء.

وقيل: الأبله.

وقيل: الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتقق بهم؛ وهو ضعيف لا يكثرث للنساء ولا يشتهيهن.

وقيل: العنين.

وقيل: الخصي.

وقيل: المخنث.

وقيل: الشيخ الكبير، والصبي الذي لم يدرك.

(١) جامع البيان (١٥٨/٢٤)، وانظر السنة للمروزي ص ٨.

(٢) انظر أقوالهم في جامع البيان (٢٦٦/١٧-٢٧٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٥٧٨/٨)،

وتفسير ابن كثير (٢٢٢/١٠) والجامع لأحكام القرآن (٢٣٤/١٢) وغيرها.

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

قال القرطبي(ت:٦٧١هـ) بعد أن ذكر هذه الأقوال: وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء. اهـ (١)، فهذا المعنى الكلي الذي ذكره القرطبي جمع به كافة الأقوال المقولة في الآية، ولكونه تضمن وصفاً اشتركت فيه كل الأقوال وهو عدم الفهم والهمة إلى أمر النساء .

المسلك الخامس: التوفيق بين الأقوال بحمل اللفظ على كافة دلالاته مطابقة وتضمناً والتزاماً .

يكثر في كلام المفسرين تفسير اللفظ بمطابقه وقد يفسرونه بلازمه، أو ببعض معناه، وقد يعدّه بعضهم خلافاً في تفسير اللفظ، وفي حقيقة الأمر هو من التنوع في الإبانة عما يدل عليه اللفظ، ولا تنافر بين دلالات اللفظ الثلاث: المطابقة والتضمن والتزام .

ويُعرّف أهل الأصول دلالة اللفظ بأنها: فهم السامع من كلام المتكلم كمال المسمى أو جزءه أو لازمه .

ففهم السامع من كلام المتكلم كمال المسمى، يطلق عليه دلالة المطابقة.

وفهم السامع من كلام المتكلم جزء المسمى، يطلق عليه دلالة التضمن.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢ / ٢٣٤) .

وانظر على سبيل المثال نظائر ذلك في جامع البيان (١٤ / ٥١٠)، و(٢٠ / ٤٤١-٤٤٢)، (٢١ / ٣٧١)، وتفسير ابن كثير (٣ / ٥٧٤)، و(٤ / ٤٦٥)، ومحاسن التأويل (٣، ٤ / ٧٥٠).

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

وفهم السامع من كلام المتكلم لازم المسمى البين - وهو اللازم في ذهن - يطلق عليه دلالة الالتزام^(١). وكل دلالة من هذه الدلالات صحيح في الإبانة عن معنى اللفظ ولا تمنع أو تدافع بينها، وقد يعدّ بعضهم اللازم قولاً مغايراً للتفسير اللفظي المطابق، والحق ألا تعارض، وكل المعاني مرادة وداخلة تحت دلالة اللفظ، فلا يمتنع تفسير اللفظ بالمطابق أن يفسر باللازم، ولا تفسيره باللازم أن يفسر بالمطابق، وهذا هو الحد الفاصل بين أهل السنة والمؤولة في تفسير بعض الألفاظ بلوازمها، فأهل السنة يفسرون اللفظ باللازم ويقررون المعنى اللفظي المطابق، فيكون اللازم معنى ثابتاً للفظ لا ينافي المعنى الأصلي

(١) انظر شرح تنقيح الفصول ص ٢٣-٢٤، وقد اهتم الأصوليون واللغويون ببيان طرق دلالة اللفظ على المعنى، فعقد ابن جنى في خصائصه (٩٨/٣) باباً قال فيه: "باب في الدلالة اللفظية، والصناعية، والمعنوية" وشرع في بيان هذه الدلالات وأمثلتها من العربية. وكذا اعتنى بها الأصوليون عناية فائقة، وخلاصة ما قالوا: إن دلالة اللفظ على الحكم تنقسم إلى قسمين: دلالة منطوق، ودلالة مفهوم. فدلالة المنطوق هي: ما دل عليه لفظ في محل نطق. وتنقسم إلى مطابقة، وتضمن، والتزام.

وأما دلالة المفهوم فهي: ما دل عليه لفظ لا في محل نطق. وهي تنقسم إلى قسمين: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة.

*مفهوم الموافقة هو: ما كان حكم المسكوت عنه موافقاً لحكم المنطوق.
*ومفهوم المخالفة هو: ما كان حكم المسكوت عنه مخالفاً لحكم المنطوق.

وفي بعض هذه المفاهيم خلاف مبسوط في مظانه من كتب الأصول. انظر العدة لأبي يعلى (١٥٢/١)، و(١٣٣٣/٤)، والبرهان للجويني (٣١٢/١)، والمحصول (٢٩٩/١/١)، و(٣١٨/١/١)، وروضة الناظر (٥٠/١)، و(١٩٧/٢)، والإحكام للأمدى (٣٦/١)، و(٧١/٣)، وشرح تنقيح الفصول ص ٢٣-٢٤، وص ٢٧٠، وكشف الأسرار عن أصول البزدوى (١٧١/١)، وشرح الكوكب (١٢٥/١)، (٤٧٣/٣)، ومذكرة الشنقيطي ص ٢٨٢، وتفسير النصوص (٥٩١/١).

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

ولا يمانعه، وذكروه للتبويه على دخول اللازم في معنى الآية ومدلولها، أما المؤولة فهم يجعلون التفسير باللازم وسيلة لنفي المعنى الأصلي للصفة وتأويله إذا خالفت ما اعتقدوه، وقرروا أن " كل صفة لله تعالى يستحيل حقيقتها على الله تفسر بلازمها"^(١) وأولوا بذلك كثيراً من صفات الله عز وجل ، بخلاف أهل السنة فهم يثبتون الصفات لله تعالى، ولا يجعلون تفسير اللفظ باللازم وسيلة لنفي الصفة .

ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] [فصلت: ١١]، ففسر الاستواء فيها بالعلو والارتفاع^(٢). وفسر بالقصد والعمد^(٣) وتفسير الاستواء بالعلو هو المعنى المطابق لدلالة لفظ (استوى) في اللغة، وهو التفسير المأثور عن السلف في موارد^(٤). وأما تفسير (الاستواء) بالقصد فهو تفسير باللازم لأن الاستواء في اللغة وفي تفاسير السلف لا يكون بمعنى القصد، وإنما جاز ذلك هنا لأن فعل (استوى) عُدِي بِـ(إِلَى) وهذه التعدية تفيد أن فعل (استوى) ضُمِّنَ معنى فعل آخر يناسب التعدية

(١) الإتيان (١٣٦٨/٤) .

(٢) انظر جامع البيان (٤٣٩/٢١)، وصحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على

الماء)، وانظر الصحيح مع الفتح (٤١٤/١٣)، وتفسير القرآن للسماعي (٦٣/١) .

(٣) انظر تفسير القرآن للسماعي (٣٨/٥)، ومعالم التنزيل (٧٨/١)، (١٦٥/٧)، والمحزر

الوجيز (١٦٠/١)، (١٦٨/١٤)، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٤-٢٥٥)، (٣٤٣/١٥)،

والتسهيل لعلوم التنزيل (٢١٤/١)، (٨٧/٣)، وتفسير القرآن لابن كثير (٣٣٢/١)، وتيسير

الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٤٨ .

(٤) انظر جامع البيان (٤٥٦/١)، وتفسير القرآن لابن أبي حاتم (٧٥/١)، والدر

المنثور (١٠٧/١). وقد جمعها الذهبي في كتابه العلو للعلي الغفاري. وانظر مادة (سوا) في

لسان العرب (٤١٤/١٤) .

افون المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

بـ(إلى) وهو فعل (قَصَدَ)^(١)؛ لأن فعل استوى إذا تجرد من التضمين يعدى بـ(على) كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ونظائرها فيكون المعنى: علا على العرش، فإن مثل هذا التفسير لا يعد تأويلاً في حال إثبات المعنى المطابق لدلالة اللفظ ألا وهو معنى العلو؛ لأنه من قبيل التفسير باللازم وهو معنى ثاني دل عليه اللفظ بسبب تضمين فعل (استوى) معنى قصد، فدل قوله: (استوى إلى) على معنى الفعل الأصلي وهو (استوى)، ومعنى الفعل المضمّن وهو (قصد)، فصار المعنيان صحيحين في تفسير اللفظ ولا ينفي إثبات أحدهما الآخر.

فمن نص في تفسير (الاستواء) في الآيتين المذكورتين على المعنيين فقد فسر اللفظ بمطابقه ولازمه فأثبت المعنى الأصلي لـ(استوى) وأثبت المعنى اللازم الذي دل عليه التضمين في الآية .

ومن اقتصر في هاتين الآيتين على تفسير اللفظ بلازمه أي: فسر (استوى) بقصد فلا يعد تأويلاً عند من عُرف عنه إثبات صفة العلو لله تعالى في تفسير النصوص الأخرى، وإنما اقتصر على التفسير بالمعنى اللازم هنا من أجل تضمين فعل قصد في فعل استوى، ولظهور المعنى الأصلي له وتقرره عنده .

أما من اقتصر على تفسير لفظ (استوى) في جميع مواردنا في القرآن والسنة بـ(قصد أو عمد) ونحوها من اللوازم، ونفى معنى العلو فهو من أهل التأويل.

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٢)

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

ومن أمثلة التفسير باللازم قول أبي حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨] قال: حطة: على وزن فعلة من الحط، وهو مصدر كالحط، وقيل: هو هيئة وحال: كالجلسة والقعدة، والحط: الإزالة، حططت عنه الخراج: أزلته عنه... وقال أحمد بن يحيى (ت: ٢٩١هـ)، وأبان بن تغلب (ت: ٤١٠هـ): الحطة: التوبة. وأنشدوا:

فاز بالحطة التي جعل الله بها ذنب عبده مغفورا

أي فاز بالتوبة، وتفسيرهما الحطة بالتوبة إنما هو تفسير باللازم لا بالمرادف؛ لأن من حط عنه الذنب فقد تيب عليه. اهـ^(١).

المسلك السادس: التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل الآية عليها جميعاً لتلازمها .

تدور فكرة هذا المسلك على وجود علاقة جزئية بين المعاني المتعددة في تفسير الآية، وهذه العلاقة هي علاقة ترابط بين المعاني بحيث إذا حمل اللفظ على أحدها لزم منه وجود المعنى الآخر أو دخوله فيه، ولو لم يكن من قبيل التلازم بمعناه الذي جرى تقريره في المسلك السابق، وعليه يمكن القول إن علاقة التلازم بين أقوال المفسرين هي العلاقة التي تربط بين الأقوال، بحيث يلزم من وجود أحدها وجود الآخر بلا تمنع .

والأصل في هذا الباب هو توجيه أقوال السلف في تفسير آي القرآن، وقد يصح استلزام بعض اللوازم من المعاني التي يحتملها النص القرآني، لكن

(١) البحر المحيط (٣٥١/١) ونظائر ذلك كثير انظر تفسير ابن كثير (٣٤٧/٦)، (١٢٤/٩)،

(٣٦٧)، (٢٠٣/١٠). والبحر المحيط (٦٥٢/٤)، و(٩٠/١٠)، و(٤٨٥/١٠) والتفسير

القيم ص ٣٠٠ .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

يجب مراعاة المعاني الأصلية في دلالة اللفظ والسياق واعتمادها، كما أنه يجب ألا يخرج لازم المعنى عن ظاهر دلالة الآية وإلا صار ضرباً من التخرص على كتاب الله تعالى .

وقد يكون اللازم من المعنى معنى صحيحاً في ذاته، لكنه لا يصح جعله تفسيراً للفظ الآية ؛ إذ لو فُتِح المجال في تفسير اللفظ بلوازم معناه لما انتهى القول في ذلك، ولخرجت الأقوال عن كونها تفسيراً للكُلفاظ وفق دلالاتها وسياقها، وقد ولج كثير من المؤلِّفة والباطنية إلى الخروج بألفاظ القرآن عن مساقاتها ودلالاتها من خلال لوازم المعاني .

ومن أمثلة هذا المسلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ^(١) ففسر الصراط في الآية بكتاب الله، وفسر بأنه الإسلام، وفسر بأنه الحق، وفسر بأنه الرسول ﷺ وصاحبه من بعده، أبو بكر وعمر .

وهذه الأقوال متلازمة بعضها لازم لبعض فاتباع أحدها لازم لاتباعها جميعاً، "فمن وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، فقد وفق للإسلام ، وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره الله به ، والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكل عبد لله صالح . وكل ذلك من الصراط المستقيم" . ^(٢)

قال الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) بعد أن ذكر هذه الأقوال: وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده

(١) انظر أوالهم في جامع البيان (١/١٧٢-١٧٦) ، وتفسير ابن أبي حاتم (١/٣٠) .

(٢) جامع البيان (١/١٧١) .

د. حسين بن علي بن حسين الحرابي

أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد (١).

ومن أمثلة هذا المسلك — أيضاً — ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] فقد تعددت عبارات السلف في تفسير قوله ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ (٢) فقال ابن عباس (ت: ٦٨هـ)، وأبو سعيد الخدري (ت: ٧٤هـ)، ومجاهد (ت: ١٠٤هـ)، وعكرمة (ت: ١٠٥هـ) وغيرهم : معناه: لمصيرك إلى الجنة.

وعن عكرمة (ت: ١٠٥هـ)، وعطاء (ت: ١١٤هـ)، ومجاهد (ت: ١٠٤هـ)، والحسن (ت: ١١٠هـ) وغيرهم: لرادك إلى يوم القيامة. وعن ابن عباس (ت: ٦٨هـ)، وأبي سعيد (ت: ٧٤هـ)، وسعيد بن جبير (ت: ٩٥هـ) فسروها : لرادك إلى الموت.

وعن ابن عباس (ت: ٦٨هـ) ومجاهد (ت: ١٠٤هـ) : لرادك إلى الموضع الذي خرجت منه وهو مكة.

فيلاحظ عند التأمل في هذه الأقوال وجود ترابط بينها يمكن معه اجتماعها وحمل الآية عليها جميعاً ووجه ذلك " أن ابن عباس (ت: ٦٨هـ) فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله ﷺ كما فسره ابن عباس بسورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٢١).

(٢) انظر أقوالهم في جامع البيان (١٨/ ٣٤٦-٣٥١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٢٥-٣٠٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠/ ٤٨٩-٤٩١) وغيرها .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿ :
أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب، ووافقه
عمر على ذلك، وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم. ولهذا فسر ابن
عباس (ت: ٦٨هـ) تارة أخرى قوله: ﴿لِرَأْدِكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم
القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء
رسالة الله وإيلاجها إلى الثقلين: الجن والإنس، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح
خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق^(١). ونظائر ذلك كثيرة في كلام
المفسرين. (٢)

المسلك السابع: التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل المسمى على كافة
أوصافه التي فسّر بها.

ومن مسالك توجيه أقوال المفسرين والتوفيق بينها أن يوجه تغاير
عبارات المفسرين في تفسير اللفظ إلى تعدد أوصاف اللفظ بحيث يذكر كل
مفسر وصفاً في المسمى غير الوصف الذي ذكره الآخر، وهذا لا شك تنوع في
العبرة وليس خلافاً محققاً، ويحمل اللفظ على جميع الأوصاف التي فسّر
وعرّف بها وهي من صفته^(٣)، وهذا كثير في كلام المفسرين، ومن أمثلة ذلك

(١) تفسير ابن كثير (١٠/٤٩١).

(٢) انظر على سبيل المثال: جامع البيان (٣/٧٠٩) (١٦/١٢٩)، (١٦/٢٤١)،

(٢١/٤٠٨، ٢٥٢)، (٢٤/٦٦٣، ١٣١)، والمحرر الوجيز (٧/٢١)، ومجموع

الفتاوى (١١/١٥)، والتفسير القيم ص ٤٣٠، ٤١٣، ٣١٩، ٢٨٤، ٢٤٠، ١٦٢، ١١٥، وتفسير

ابن كثير (١/٣٧٦، ٣٢١)، (٢/٢٥٩)، (٣/١٠٠)، (٧/٥٨)، (٨/٢٨٩)، (٩/٣٩٥)،

(١٠/٤٢١)، (١٢/٣٦٢، ٣٢٢، ٣٦)، (١٣/٤٣١)، (١٤/٣٦٥، ٢٩٣، ٢٤٨)، وفتح القدير

(١/٢٧٦).

(٣) انظر مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]: ففسره
عكرمة (ت: ١٠٥هـ)، ومجاهد (ت: ١٠٤هـ)، وعطاء (ت: ١١٤هـ) وسعيد بن
جبير (ت: ٩٥هـ) بقصر مجصص أي: مبيض بالجص. والتجصيص من
أوصاف القصر .

وفسره الضحاك (ت: ١٠٥هـ): بقصر طويل مرتفع. والارتفاع من
أوصاف القصر .

وفسره قتادة (ت: ١١٧هـ): بقصر محصن^(١). والتحصين من أوصاف
القصر ، فتضمن كل قول وصفاً غير الوصف الذي ذكر في الأقوال الأخرى،
فهذه الأقوال في الحقيقة متفقة وليست مختلفة فكلها تنفق في أن عقوبة الله تعالى
حلت بأهل هذا القصر المشيد في تحصينه وارتفاعه وإتقان بنائه ولم يغن عنهم
شيئاً .

قال ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) بعد أن حكى هذه الأقوال: وكل هذه الأقوال
متقاربة ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه، ولا ارتفاعه، ولا إحكامه،
ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ
الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨]. اهـ^(٢) .

المسلك الثامن: التوفيق بين أقوال المفسرين بحمل اللفظ على كافة الأقوال
لتقاربها .

هذا المسلك متعلق بالتفسير المطابق للفظ من حيث الوضع اللغوي،
وهذا هو ما يسمى بالتفسير اللفظي، وتحو إليه كتب المعاجم اللغوية وكتب

(١) انظر أقالهم في جامع البيان (١٦/٥٩٢-٥٩٣)، وتفسير ابن كثير (١٠/٧٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/٧٩)، وانظر تفسير السعدي ص ٥٤١ .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها
غريب القرآن، وهو موجود في كلام السلف، وهذا البحث ذو علاقة بمسألة
وجود الترادف في اللغة من عدمه، والمسألة محل خلاف، فإن قلنا بالترادف في
اللغة تكون الأقوال المتعددة المفسرة للفظ من قبيل تفسير اللفظ بمرادفاته، وعليه
لا تعارض بينها ويحمل اللفظ عليها جميعاً.

وإن قلنا بعدم وقوع الترادف في اللغة والقرآن - وهو الأقرب -
فتكون الأقوال المتعددة المفسرة للفظ من قبيل تفسير المسمى بألفاظ متقاربة،
يبين كل لفظ منها قدراً من المعنى المطابق للمسمى، وهذا الوجه هو الذي
انتصر له شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) في مقدمته في أصول التفسير،
فقال: ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً: أن يعبروا عن
المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة؛ فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ
القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقال أن يُعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي
جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه. وهذا من أسباب إعجاز القرآن فإذا قال
القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] إن المور هو الحركة، كان تقريباً
إذ المور حركة خفيفة سريعة. اهـ (١) وقد سرد جملة من الألفاظ القرآنية
ومعانيها التي فسرت بألفاظ متقاربة، من قبيل التقريب كلفظ "الوحي"، و"ريب"،
و"تُبْسَل"، وحرر مسألة تعدية الفعل بغير الحرف الذي يعدى به، وأنه من قبيل
التضمين على الصحيح لا من تناوب حروف الجر. وذلك من تعزيز اختياره
لندرة وقوع الترادف في اللغة وفي القرآن.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في بيان معنى "وَأَخْبَتُوا" من قوله
تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]
ففسرها ابن عباس وقتادة: بأنابوا .

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٥١ .

وعن ابن عباس: خافوا .

وفسرهما مجاهد: باطمأنوا .

وفسرهما قتادة: بالتخشع والتواضع .

وهذه المعاني التي ذكرها السلف جميعاً ذات دلالات متقاربة، وهي مرادة من لفظ الإخبات قال الإمام ابن جرير (ت: ٣١٠هـ): وهذه الأقوال متقاربة المعاني ، وإن اختلفت ألفاظها ؛ لأن الإجابة إلى الله من خوف الله ، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة ، والطمأنينة إليه من الخشوع له ، غير أن نفس الإخبات عند العرب الخشوع والتواضع . اهـ^(١) .

ونظائر ذلك كثير في كلام السلف^(٢)

* *

(١) جامع البيان (١٢ / ٣٧٥)

(٢) انظر على سبيل المثال: جامع البيان (١ / ٦١٥)، و(٣ / ٥٧٩)، و(٥ / ٦٩٥، ٦٩٨)، و(٨ / ٤٥)، و(١١ / ١٢٨، ٢٤٠)، و(١٣ / ١٩٢، ٣١٧، ٣٤١). والمحزر الوجيز لابن عطية (٣ / ١٥٧)، و(٤ / ٢٢٨)، و(٨ / ٩٤)، و(٩ / ١٧٥)، و(١٦ / ٢٦٩). والجامع لأحكام القرآن (٢ / ٩٧)، و(٢ / ١١٤)، و(٢ / ١٣١)، و(٣ / ١٢٤)، و(٣ / ١٢٤). وتفسير ابن كثير (١ / ٤٧٢)، و(٢ / ١١٥)، و(٦ / ٧٩، ٢٧٩، ٤٢٨)، و(٩ / ٢٣٦، ١٠٤، ٧١، ٢٧٠، ٤٣٩، ٢٨٩)، و(١٤ / ٣٦٢). وفتح الباري لابن حجر (١ / ١٦٥)، ومحاسن التأويل (٤ / ٩١٥) .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

الخاتمة :

وفي الختام أحمد الله تعالى الذي أعان على إكمال هذا البحث الذي بينت فيه أصول التعامل مع أقوال المفسرين توجيهاً وتوفيقاً، وأوضحت أهم مسالكه وأمثلة من تفسير السلف لأي القرآن، وهذه أهم النتائج التي خلص إليها هذا البحث:

- أن أقوال السلف في التفسير لها من عمق الدلالة في بيان النص القرآني ما ليس لغيرهم .
 - أن السلف كانوا يعتنون بمراعاة حال المتلقي لتفسيرهم ؛ لذا تعددت أقوالهم لتعدد أحوال المتلقين وتعدد احتياجاتهم من هدايات القرآن.
 - أن عدول السلف عن تفسير اللفظ القرآني بمطابقه إلى تفسيره بمثاله ومعناه كان لأسباب وعلل معتبرة .
 - أن الحافظ ابن كثير من أكثر المفسرين عناية بتوجيه أقوال السلف في التفسير والتوفيق بينها .
 - أنه لا بد من التدرج في دراسة أقوال المفسرين وفق ما قرره هذا البحث من مراتب النظر في أقوال المفسرين .
 - أن كثيراً من الأقوال التفسيرية التي يظن أنها مختلفة هي في حقيقة الأمر متفقة وليست مختلفة، ويمكن حمل الآية على المعاني مجتمعة .
 - أن تكثير معاني آيات القرآن الكريم بحمل الآية على الأقوال جميعاً أوتى من تقليلها بترك بعضها.
- وفي ختام هذا البحث أمل أن يكون قد أوضح شيئاً من أصول توجيه أقوال المفسرين ومسالك التوفيق بينها، وأوجد طرقاً علمية لتخريج هذا التعدد، والحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

- ١- الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة، الأولى ١٤٢٦هـ
- ٢- الإجماع في التفسير، لمحمد بن عبدالعزيز الخضير، ط: دار الوطن - الرياض ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٣- أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، راجعه: محمد عبدالقادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٤- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق القمحاوي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٥- الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الأمدي، تحقيق: سيد الجميلي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٦- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد سعيد البدري، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٧- الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ أحمد بن علي بن حجر، ط: دار الكتب العلمية - بيروت عن طبعة كلكتا ١٨٥٣م.
- ٨- أصول في التفسير، لمحمد بن صالح العثيمين، ط: دار ابن القيم - الدمام، الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

== أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها ==

- ٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط: عالم الكتب - بيروت.
- ١٠- الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، ط: دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ.
- ١١- الإكسير في علم التفسير، لسليمان بن عبد القوي الصرصي الطوفي، تحقيق: عبدالقادر حسين، ط: مكتبة الآداب - القاهرة .
- ١٢- بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: زكريا عبد المجيد النوني وآخرين، ط: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- ١٣- البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، ط: المكتبة التجارية - مكة المكرمة .
- ١٤- بدائع الفوائد ، لابن قيم الجوزية ، ط: دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .
- ١٥- البرهان في أصول الفقه، لإمام الحرمين عبدالملك بن عبدالله الجويني، تحقيق: عبدالعظيم محمود الديب، ط: دار الوفاء، المنصورة، الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- ١٦- البرهان في علوم القرآن، لبيد الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار المعرفة، بيروت.
- ١٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: المكتبة العصرية - بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

١٨- تأويل مشكل القرآن، لعبدالله بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، ط: دار التراث - القاهرة، الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

١٩- التحرير والتوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور ، ط: الدار التونسية للنشر - ليبيا .

٢٠- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزّي الكلبّي الغرناطي، تحقيق: محمد بن سيدي محمد مولاي، ط: دار الضياء - الكويت، الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

٢١- التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، ط: عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٢٢- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان .

٢٣- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان .

٢٤- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ط: دار المعرفة، بيروت - لبنان، الثانية.

٢٥- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي ، تحقيق: أسعد محمد الطيب ، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة ، الأولى ١٤١٧هـ .

- أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها
- ٢٦- تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق : مصطفى السيد محمد وآخرين، ط: دار عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية، الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
- ٢٧- تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط: دار الوطن للنشر، الرياض ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٢٨- التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، جمعه: محمد أويس الندوي، حققه: محمد حامد الفقي، ط: دار العلوم الحديثة ، بيروت .
- ٢٩- التفسير اللغوي للقرآن الكريم، لمساعد الطيار، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الأولى ١٤٢٢هـ .
- ٣٠- تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، لمحمد أديب الصالح، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الثالثة، ١٤٠٤هـ .
- ٣١- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، لأبي محمد جمال الدين الأسنوي، تحقيق: محمد حسن هيتو، ط: مؤسسة الرسالة ، بيروت، الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٩٤م .
- ٣٢- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، تحقيق: عبدالسلام هارون وآخرين ، ط: الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر ١٣٨٤هـ .
- ٣٣- التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد المناوي ، تحقيق: محمد الدايرة ، ط: دار الفكر - دمشق ، الأولى ١٤١٠هـ .

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

٣٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا المطيري، ط: مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٥- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، عني بتصحيحه: أوتوبرتزل، ط: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٣٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٣٧- الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي، ط: دار إحياء التراث، بيروت - لبنان ، ١٩٦٥م.

٣٨- الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الحسين بن عبدالغفار الفارسي، حققه: بدرالدين قهوجي، وبشير جويجاتي، ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الأولى ١٤٠٤هـ .

٣٩- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط: دار الكتاب العربي، بيروت .

٤٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، ط: دار الفكر، بيروت ، الأولى ١٤٠٣هـ.

٤١- روضة الناظر وجنة المناظر، لموفق الدين أحمد بن قدامة، ومعها شرحها نزهة الخاطر العاطر، لعبد القادر بن أحمد بن بدران، ط: مكتبة المعارف - الرياض .

أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها

- ٤٢- السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف، ط: دار المعارف، القاهرة، الثالثة .
- ٤٣- السنة للمروزي لمحمد بن نصر المروزي، خرج أحاديثه: سالم بن أجمد السلفي، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ٤٤- شرح الكوكب المنير، لمحمد بن أحمد الفتوحى ، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزبه حماد، ط: جامعة أم القرى، الأولى ١٤٠٠هـ .
- ٤٥- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، حققه: طه عبدالرؤف سعد، ط: دار الفكر، بيروت، الأولى ١٣٩٣هـ .
- ٤٦- صحيح البخاري، مع فتح الباري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر ، تحقيق : محب الدين الخطيب، ط: الدار السلفية ، الثالثة ١٤٠٧هـ .
- ٤٧- صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ترقيم : محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، استنبول - تركيا ، الأولى ١٣٧٤هـ .
- ٤٨- طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٤٩- العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، تحقيق: أحمد سير المباركي، ط: الثانية ١٤١٠هـ .
- ٥٠- فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان القنوجي، عني بطبعه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، ط: المكتبة العصرية، بيروت، ١٣١٢هـ .

د. حسين بن علي بن حسين الحربي

٥١-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، ط: دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٥٢-القراءات وعلل النحويين فيها، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: نوال بنت إبراهيم الحلوة، ط: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

٥٣-قواعد الترجيح عند المفسرين، لحسين بن علي الحربي، ط: دار القاسم - الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

٥٤-قواعد التفسير، لخالد بن عثمان السبت، ط: دار ابن عفان - الخبر، الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٥٥-كشف الأسرار عن أصول البزدوي، لعبدالعزیز بن أحمد البخاري، تعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى ١٤١١هـ .

٥٦-الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: محيي الدين رمضان، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الرابعة ١٤٠٧هـ .

٥٧-الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى ١٣١٢هـ - ١٩٩٢م .

٥٨-لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، ط: دار صادر - بيروت، الأولى ١٤١٠هـ .

٥٩-مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ .

- أقول المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها
- ٦٠- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، صححه: محمد عبد الباقي، ط: دار إحياء الكتب العربية "البابي الحلبي".
- ٦١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية، ط: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب - الأولى.
- ٦٢- المحصول في علم أصول الفقه، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق: طه جابر فياض، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، الأولى ١٣٩٩هـ.
- ٦٣- مذكرة في أصول الفقه، لمحمد الأمين المختار الشنقيطي، ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٦٤- معالم التنزيل، لمحيي السنة الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر وآخرين، ط: دار طيبة - الرياض ١٤٠٩هـ.
- ٦٥- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ط: دار الفكر ١٣٩٩هـ.
- ٦٦- مفردات القرآن، لعبد الحميد الفراهي، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ط: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الأولى ٢٠٠٢م.
- ٦٧- مقدمة في أصول التفسير، لتقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، ط: دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان.
- ٦٨- المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: يوسف عبدالرحمن المرعشلي، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

===== د. حسين بن علي بن حسين الحربي =====

٦٩-الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، تعليق: عبدالله دراز،
ط: دار المعرفة، بيروت .

٧٠-النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد
ابن عبدالمقصود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الأولى،
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

* * *

